محمد الفيتوري

ملك أو كتابة

وقصائد مختارة

الكتاب: ملك أو كتابة .. وقصائد مختارة

الكاتب: محمد الفيتوري

الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الفيتوري، محمد

ملك أو كتابة .. وقصائد مختارة / محمد الفيتوري

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولي: 6 – 48 – 5772 – 977

أ – العنوان رقم الإيداع : 14979

ملك أو كتابة

وقصائد مختارة

عن الشعر والكلمات الميتة!

-1-

إن الكلمات الميتة، كالأشجار الميتة
دون ظلال..
تعبرنا حين تقال..
الكلمات الميتة
كنباتات الشطآن الصخرية زلقة
تتسلقنا بيد الشفقة
بالضحكات المرة؟
بالحزن المر
بالإحساس العادي
من روح الشعر!

-2-

عن موت الكلمة
قال الشاعر، كيف تموت الكلمة؟
جلد الأفعى الجبلية يلعقني..
يتمسح بي..
أحرقت بخوري للأفعى الجبلية
مازالت تتمسح بي

إني والأفعى أوشك أن أنسى أني..
أستغرق ليل نهار
ما شأني أن تسود النار
أن يسقط ظل فوق جدار
أو لسنا أحرارا، فيما نختار
وأنا لا أنسى.. لا أقوى
قال الشاعر
والأفعى تحلم ثانية أن تلعقني
والدهليز الرطب يغني
يحشو نار جيلته، ثم يظل يغني
أنا فارسها..
أنا سيدها الأول
أعطتني كل هدايا موسمها الأول..
ثم أخضرت أشجار الصيف
الفاكهة الخضراء،
احمرت بعد هبوط الصيف
لا بأس فقد قضينا بعض الوقت
ما جدوى أن نتسلق سور الصمت
أنا قد ثرثرت فعذرا..
قال الشاعر..
ألهتني تلك المرأة..

أنستني.. فنسيت
كما نتحدث عن كيف الكلمات تموت

-3-

عينان على أرض الشارع
عينان تضيئان الشارع
عينان على قدمين
الرأس "على أربع
المجد على قدمين
العار على أربع
قال الشاعر:
- كيف الكلمات تموت..
وسار على أربع
زلقت في عينيه قدما طفل ضائع
لا تخجل يا عصري الرائع
فعلى أرض الشارع
أطفالك..
مازالت كف الطفل الضائع
تتمرغ في جسده
الأسماك الصفراء
تعرت عن جسده

الطفل يحاول يخفي
عورته بيده!
الطفل يحاول أن يخفي عورة بلده
ذاك الطفل الرائع
يتلفت في خزي مهموم..
يتعثر، ثم يقوم
قال الشاعر، كيف الكلمات تموت
وتذكر في زهو فاجع
وجه الأنثى الأولى
وازدادت قامته طولا
وتناسى وجه الطفل الشحاذ المرسوم
في أسفلت الشارع

-4-

قلب الدنيا يتنفس من رئتي باريس
أحلى أشعاري
ما غنيت به باريس
"أوروبا" تحملني في عينيها
أما باريس فترضعني من ثدييها
لا أكذبكم أني أهوى باريس
***

الشرطي النعسان يمط ذراعيه.
يتلصص خلف زجاج ألحان
كلب الشرطي يحدق
في لون الحيطان
وعلي باريس المخمورة
ثلج ودخان
وأنا وفتاتي البوهيمية..
ملتصقان..
الفجر الأحمر يفرك عينيه
وأنا عريان
أتسكع كالصلعوك.
على قدمي باريس
لا أكذبكم، قال الشاعر
في هذا الشرق، الشاعر يصيح كالقديس
وتقولون الكلمات تموت
ماذا يبقى للناس إذن
لو ماتت كلمات الشعراء
"الشاعر زنجي من إفريقيا السوداء"

-5-

حيث موانئ الرياح والسحب
وحيث تهبط السماء عن كثب
وحيث يولد الجلال والغضب
وحيث يركض التعب
والحوت والزراف والذهب
حيث نوافذ الغيوم مشرعة
العرش كان مزرعة
والتاج والإكليل كان نصف قبعة
بالية، بادية الصدا، مبقعة
تخفي حريق الشمس الاستوائية
عن وجنتي حسناء زنجية
مليكة في الغاب منسية
نحيلة كالقوس محنية
تقول في مزارع الكاكاو والقصب
كأنما تعاتب السحب الرمادية:

ليس لأننا ارتضيناه
حين احتضناه
خلف مآقينا
لكن لأنه لما يزل فينا

يعيش في رجع سواقينا
في دمنا، وفي أيادينا
في رقصنا، وفي أغانينا
الحزن ، ما سال به صوت مغنينا"
– بعض الكلمات
قديما قال الشاعر
مثل سحائب صيف
بعض الكلمات
لصوص تحت الليل مبطنة الأقدام
فاحذر أن يجري في كلماتك
ماء الزيف
كي لا تمشي فيها الأقدام

1964

الطوفان الأسود

لقد غسل النور أرضك
حتى سراديبك الرطبة المظلمة
مشي الفجر فيها بأنفاسه..
يفضض أيامك القادمة
فهل تسمعين أغاني الزنوج
تدوي مثقلة بالحياة
وهل تبصرين وجوده العبيد؟
تقهقه حول نعوش الطغاة!
لقد كنت مقبرة، ضخمة
تدوس عليها خيول الغزاة
وكنت بقية أسطورة.. ملوثة
بصقتها الشفاة!
"بلاد العبيد. إفريقيا.."
يا بلاد الزنوج الحفاة العراة
نرى كيف يمشون في عريهم
وكيف يعيشون خلف الحياة؟
وأجسامهم
ذلك الأبنوس العجيب
المفصل مثل البشر

ونيرانهم في شعاب الجبال
وأطفالهم في بطون الشجر..
مت أجد المال
كي أشتري حذاء، وكلبا ، وثوبا جديد
وأمضي إلى أرض أفريقيا
لأصطاد قافة من عبيد!
فإني امرؤ أبيض كالثلوج
ولست عظيما لأني فقير
وقد كان لي رفقة...
ثم عادوا سراة عظاما
فلم لا أسير؟
لكم أشتهي جسدا دافئا
مهيبا.. لزنجية جامحة
فقد قيل إن لحوم الجواري
لها نكهة.. ولها رائحه..
بلاد الكنوز. ! أفريقيا

***

يا بلاد الزنوج الحفاة العراة
سآتيك يوما.. كغاز جديد
يريد الغني، ويريد الحياة

***

كذلك عشت ألوف السنين
تخرين، فوق خطايا وثن..
إلى أن تسلل ضوء الصباح إليك
فمزقت عنك الكفن
وقمت كماردة تتلقى الضحى
وتحول مجرى الرياح
وتحفر تاريخها من جديد
على جبهة الشمس حفر الجراح!
فهل تسمعين أغاني الزنوج
تدوي مثقلة.. بالحياة
وهل تبصرين وجوه العبيد
تقهقة حول نعوش الطغاة!

***

كذلك كان يغني لها
ويقرع ناقوسه في جنون..
وإن لم تزل تتلوى القيود على قدميها
وتبنى السجون على أرضها..
وتقام المشانق ترتجل الموت في كل حين.!
فقد كان يحمل في روحه
تمرد أجداده أجمعين

***

تمرد جد قضى ليلة يصب المياه على الموقد
ولما أبي..!
مزقته السياط
فحطم جمجمة السيد؟
وآخر كانت تنام الشياه وتصحو
على صوت مزماره
وفي ليلة، كفرت روحه
بجزارها، وبجزاره
فهب، فأشعل أحقاده
فسالت جحيما بوجه الصنم
وأبصره الغد فوق الرمال
تكفنه عزة المنتقم!

***

وآخر أسود بادي العبوس
طيل، رفيع، كصاري سفينة
وقد حدثوا أن ميلاده
بإحدى ليالي الشتاء الحزينة
كما حدثوا أن أول جيش من البيض
دنس أرض الوطن!
ينام بمقبرة حفترها محاريثه

خلف سور الزمن
وقد كان يؤمن في عمقه
بحري السود، والكادحين
وحتى الطغاة الذين انتهوا
وآلهة البشر الساقطين.

***

وكالموت حين يغطى الحياة
بأفراحها، وبأحزانها
وكالصمت حين يضم الحقول
بأصواتها وبألوانها
تراءت له مثل صفصافة
تفيء إليها جموع الظلال
وكانت أكف الهجير الضرير
تسمر أقدامه في الرمال
فوسد أحانه صدرها
وأطبق أجفانه في سكون
كميت تداعبه موجة
وتهوى به في اصطحاب حزين
وراح يرى ملء أحلامه
جزائر غارقة في الغمام

يظلها نغم ازرق.
شفيف، شفيف بلون السلام
وكانت هنالك عند الشمال
حقول متوجة بالغلال
وقوم من السود مستغرقون
يرصون أكداسها في التلال
وأصواتهم وزغاريدهم
ترفرف صاعدة من بعيد
كما يتصاعد كل صباح ضباب الحقول
ببطء شديد
وحين تصف طيور الغرورب
على الأفق أجنحها المذهبات
وتمضي تنقر ثوب السكون
بكل مناقيرها المتعبات
تراهم يلوحون فوق الدروب
أو يتوارون خلف الشجر
وهم عائدون إلى دورهم
بأيد مثقلة بالزهر

***

وأسكره حلمه العاطفي
فبعثر أشواقه أجمعين
وعانق إخوانه باكيا
ومد يديه إلى الآخرين
وهزته أفراحه.. فأفاق
على ظل صفصافة واقفة
وكانت جموع الزنوج العراة
تحركها ثورة العاصفة
فسار يغني مع السائرين
وهم زاحفون إلى الطاغية
ويحفر فوق جدار الزمان
أغاني أفريقا الدامية!

1953

مقتل السلطان تاج الدين

بطل شعبي قاد نضال قبائل المساليت المشهورة في غرب السودان ضد القوات الفرنسية الغازية. وسقط شهيدا في معركة النصر عام 1910.

-1-

فوق الأفق الغربي سحاب أحمر لم يمطر
والشمس هنالك مسجونة
تتنزى شوقا منذ سنين
والريح تدور كطاحونة
حول خيامك يا تاج الدين

****

يا فارس
سرج جوادك ليس يلامس ظهر الأرض
وحسامك مثل البيرق يخترق الظلمات
يا فارس
مثل الصقر إذا ما انقض
بيتك عالي الشرفات
نارك لا تخبو.. لا تسود
وجارك موفور العرض
يا فارس..

حتى مات!

-2-

كان السلطان يقود طلائعنا
نحو الكفار
وكان هنالك بحر الدين
وأشار إلينا تاج الدين
وأطل بعينيه كالحالم.
في قلب السهل الممتد
ثم تنهد:
الحب الملعونة
يا ويل الحرب الملعون
أكلت حتى الشوك المسود
لم تبق جدارا لم ينهد
ومضى السلام يقول لنا
ولبحر الدين:
– هذا زمن الشدة يا إخواني
هذا زمن الأحزان
سيموت كثير منا
وستشهد هذي الوديان
حزنا لم تشهده من قبل ولا من بعد
***

وارتاح بكلتا كفيه فوق الحربة
ورنا في استغراق
نحو وجوه الفرسان
كان الجو ثقيال، مسقوفا بالرهبة
وبحار من عرق ترى فوق الأذقان
وسيوفهم المسلولة تاكلها الرغبة
والخيل سنابكها تتوقد كالنيران
ومضى السلطان يقول لنا
ولبحر الدين:
– هذا زمن الشدة يا إخواني
فسيوف الفرسان المقبوضة بالأيدي
تغدو حطبا مالم نقبضها بالإيمان
والسيف القاطع في كف الفارس
كالفارس يحلم بلقاء الفرسان
***

وترجل تاج الدين
جبل يترجل مزهوا من فوق جبل
وترجل بحر الدين
وحواليه عشرة آلاف رجل
سجدوا فوق رمال "درويتي" لله معه

واطلت كل عيون الطير المندفعة
في هجرتها من أقصى الغرب لتاج الدين
فعلى أفق الوادي الغائم
تمتد رؤوس وعمائم
وبيارق يشبهن حمائم
ثم ارتجفت أفواج الطير
وراء السحب المرتفعة

-3-

- يا تاج الدين
الأعداء أمامك.. فارع
لهب.. وقذائف حمر..
وخوذات تلمع
والحربة مهما طالت
لن تهزم مدفع
لن تهزمهم يا تاج الدين
بسلاح كزمانك مسكين
وكعاصفة سوداء تلفت تاج الدين
في سخط الجبارين تلفت تاج الدين
وأطل على وجه القائل
كانت شفتاه رعودا وزلازل
كانت كلمات السلطان

سلاسل

– يا ويلك لو لم تك ضيفي يا عبد الله

ما أقبح ما حركت به شفتيك

ما أبشع ما منيت به عينيك

عار ما قلت..

وعار أن نستمع إليك

فاثن زمام جوادك

وخذ الدرب الآخر.

وتدفقت الرايات

وغطي الأفق صهيل الخيل

و"دروني" العطشى مازالت

تحلم بمجيء السيل

وتحدر من خلف الوديان المحجوبة

علم قان.. ومدافع سبع منصوبة

وحرائق وضجيج شياطين

ها هم قدموا يا تاج الدين

فانشر دقات طبولك ملء الغاب

حاربهم بالظفر، وبالناب

طوبى للفارس

إن الحرب اليوم شرف

طوبى للفارس

إن الموت اليوم شرف
داسوا عزة أرضك
هتكوا حرمة عرضك
عاثوا ملء بلادك غازين
غرباء الأوجه سفاكين
فاضرب.. اضرب.. يا تاج الدين
اضرب..اضرب.. اضرب..

-5-

– يا مولاي السلطان
سلام الله عليك
قتلى أعدائك مطرحون
لدى قدميك
أسرى مغلولون وخدام بين يديك
أكلت نيرن مدافعهم نيرانك أنت
بالسيف وبالحربة
وبإيمانك قاتلت
يا فارس تسحق أعداءك
أني أقبلت
حين استبقوا نحوك
باس بلادك ناديت
"لن يحجبني عن حبك شيء"

"إنك ملء دماي وعيني"

"يا دار مساليت أناحي"

-6-

وهجمت فأجفل قائدهم

وانشق ستار

كان ستار رصاص

كان ستارا من نار

نصبوه في وجهك صفين

كي لا ترى قائدهم بالعين

لكنك يا فارس أقدمت

فوق المدفع بالسيف مشيت

ولحقت بقائدهم فانهار

القائد ذو الجبروت انهار

ذو المركبة النارية والخوذات انهار

أحني رأسا ماتت في عينيه الرغبات

مد يديه يبكي في حشرجة الأموات

عري صدرا دمويا أعشب فيه العار

هذا الصدر العاري المنهار

من قبل لقائك زانته نياشين الأكبار

لكنك يا فارس آليت

ألا تهب الكافر صفحك

أن تسقي من دمه رمحك
أن تصلبهم عبر الفلوات
أن تجعل موتاهم مثلا
لزمان عبر زمانك آت

-7-

تحت الراية غرقت رأس القائد في الدم
أرخي عينيه في رعب..
ثم استسلم
سلمت كفك يا تاج الدين
فاقض على أحلام الباقين
صاروا بعد القائد
قطعان غنم
طاردهم بجنودك
عبر الفلوت
عبر "دوريتي" عبر الأكمت
قتلاك من الأعداء مئات
والأسرى قد ملأوا الساحات
والقائد ملقى في الطرقات
سلمت كفك يا تاج الدين

-8-

لكن الشمس المسجونة

والريح الحيلي الملعونة
ما زالت مثل الطاحونة
تجرى.. تجيء حول خيامك
تجري من خلفك وأمامك
– يا تاج الدين
– يا تاج الدين
ما زال عداتك مختبئين
أيديهم راعشة.. ورصاص بنادقهم
يتزاحم في بطء نحو جبينك
يا فارس خذ حذك
من طعنات طعينك
يا فارس خذ حذرك
يا فارس خذ حذرك
ليتك لا تتحرك
فبنادقهم ما زالت راكضة إثرك
أترى تثقب رأسك
أترى تثقب صدرك
يا فارس خذ حذرك
ليتك لا تتحرك
وتحرك تاج الدين
كانت عيناه حينئذ

تقفان على جرحاه
والراية في عينيه
قد لطخها الدم
وأتت ريح خريف
تتراكض خلف خطاه
وتحبهم وجه "دورتى" بالسحب وأظلم
وأتت بضع رصاصات
خجلات مضطربات
أقبلن من الظلمت
فرأينا تاج الدين
يبدو وكأن قد مات
يا تاج الدين سلمت
مزق أستار الصمت
عد من وديان الموت
أو تذهب حتى أنت
وتساقط تاج الدين
لم يقوَ الفارس أن يرجع
لبكاء الشعب عليه
فرصاصات خمس صدئات
تسكن في عينيه
لكن أحدا لم ير رايته
تسقط من كفيه

الجنينة – دار مساليت مارس 1964

سقوط دبشليم

"وإنك أيها الملك السعيد جده..
الطالع كوكب سعده، قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم، ومنازلهم التي كانت عدتهم، فأقمت فيما خولت من الملك، وورثت من الأموال والجنود. فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك، بل طغيت، وبغيت، وعنوت، وعلوت على الرعية، وأسأت السيرة، وعظمت منك البلية..".

بيدبا الحكيم

(من كليله ودمنة)

صلاة قبل الأفول

الريح في شوارع المدينة المائلة الشرفات

تدحرج الطبول

والقمر القديم شاحب الرؤى

يحلم بالأفول

يا ريح ما الذي أقول

لو أن ذاك القمر القديم مات

ما الذي أقول؟

إيقاعات قديمة

ومعانق الأجداث رغم تفسخ الأجداث أعمى

يمشي إلى أقدامه، ويموت قبل الموت هما

والضعف إنسان يرى في الماء صورته فيظمأ

وأحق هذا الخلف إشفاقا به..

وأشد وهما
من ليس يعرف أنه مغمى عليه
وهو مغمى
الافتتاحية
وقال بيدبا:
– اللصوص اقتحموا حواجز الميناء
وحطموا سارية السفينة
وسرقوا كنوزها الثمينة
ولم يزل قبطانها يضرب في أزقة المدينة
يبحث عن منظاره القديم
تلك هي الرواية التي
أرى فصولها يا دبشليم
لا بأس فلنبك قليلا ربما طهرنا البكاء
نحن الذين اختفت على شفاهنا إرادة الألم
نحن الذين لم تزل ترف فوقنا بيارق الندم
لا بأس أن نطأطئ الرؤوس بعض الوقت
وأن نلوذ ساعة بالصمت
فالنصر قد يكون في الهزيمة
والعدل في الجريمة
الرؤيا
وغامت الآفاق فجأة، وأظلم النهار

وأسقت أوراقها الأشجار
ورقصت هياكل الأسماك في البحار
والتقت الوجوه بالوجوه
والأقدار بالأقدار
وأنك ابنه أبوه.. ثم سار
مولولا.. ثم تيقت..
فقال بيدبا لدشليم:
– المرء دائما وما يختار
داخل السرير الملكى
– أخائف أنت؟
وهب دبشليم مغضبا
وقال بيدبا:
– تنام يا مولاي مهموما، وتصحو متعبا
واعجباً
تلبس تاجا من ذهب
وجبة من الحرير والقصب
وحولك الحجاب والحراس بالآلاف
ثم تخاف
أهذه خاتمة المطاف؟
الذين يجيئون
– هم يشبهون السيل

قال بيدبا الحكيم:

وكان وجه الملك الجليل دبشليم

يا قوتة ترجف في خاتمة القديم

– ودائما كالعرق الذي على جباههم

يبتسمون

ويركضون

وإذ يشاءون ويقدرون

ودائما ينسى الملوك

دائما يهوي الصدا على الصدا

ودائما يجيء سيلهم..

لأنهم لا يقفون أبدا

حوار..

تقلو لي يا دبشليم

وابتسامة الغضب

تنصب ما بيني وما بينك

جسرا من لهب

– اطبق فمك

حكمة هذا العصر أن تطبق عينيك

طويلا وفمك

يا دبشليم الحق صوت الله

وكلمة الحق هي الحياة

فلا تضق ذرعا
إذا تحركت بها الشفاه
المعركة..
أرضك ظمأى..
والخريف شح هذا العام
والمتسولون يزحفون، والأقزام
يعربودن في حطام المملكة
يا ملكا متوجا على حطام
يا قائدا بغير معركة هذا أوان المعركة
وصية الشاعر القديم
لولا حيائي منك، لولا خشيتي
لقلت لك:
السم في كأسك، والخنجر في العباءة
يا أيها الجالس خلف الحجرة المضاءة
على جلالك السلام
وأومأ الأمير للسياف: يا غلام
أطح برأسه..
وضاع الصوت في الزحام
***

واعجباً يا سيدى

كأنما أغوص في حلم من الأحلام
فإنني كنت نصحت منذ ألف عام متوجا مثلك
– ما أعدله وأعدلك–
لكنه ازدرى نصيحتي
ازداني..
وبقيت.
بينما هلك..
العميان والجريمة
وقال بيدبا:
– المهرجون يضحكون والجثة فوق المشنقة
كراية قدية معلقة
والشمس يكسوها المشيب في السما
يا دبشليم ربما
نفتح العيون مبصرين بينما
قد شبعت أغوارها عمى!
السقوط
وقال بيدبا:
– سألتني عن السقوط مرة
فإن تكن مازلت مصغيا إلى
أيها الملك
ها أنذا أقول لك

– يسقط بعضهم
لأنه يرى ولا يرى
ويسقط البعض..
لأنه يسير القهقري
وشر أنواع السقوط مرضا
هو السقوط في الرضا
إيقاعات حديثه
أسامعي يا دبشليم؟
الفجر مثقوب الوشاح وابتسامة الشفق
مضفرة.. ونحن والغيوم شاهدان
تحت قبة الأفق
أسامعي؟
أكاد أن أشم نفس الرائحة
أكاد أن ألمس باليدين وجه البارحه
المخاض
في الأرض ثورة، وفي السماء
ثورة يا دبشليم
الأرض تطحن النجوم
واليح تمضغ الغيوم
فكيف تستعذب نوم العين
وأنت بين بين!

كتابة منسية

أعلم أن الموت حق، والحياة باطلة

والمرء لا يعيش مهما عاش إلا ليموت

وكل صرخة مصب نهرها السكوت

وأروع النجوم هاتيك التي

تضيء درب القافلة

حين يغطى العشب ذكرياتنا

وتشهق المأساة في البيوت

السؤال والإجابة

بأي سيف أقهر الطغيان؟

قال بيدبا:

– بسيف الضعفاء كلهم

– بأي نار أحرق الأكفان؟

قال بيدبا:

– بنار فقرهم.. وذلهم

– بأي شيء أصنع الإنسان؟

قال بيدبا:

– تصنعه إذا سقطت واقفا من أجلهم.

قاع المدينة...

وقال دبشليم يا حكيم:

– حدثني عن ماء يلوح راكضا وهو آسن

وعن شعاع في منازل النجوم يحتقن
فغاب بيدبا هنيهة.. وقال:
– إنما هم الرجال حين يأسنون
يأسن حتي النور
والحب والسرور
وقال بيدبا:
– وقوة الحياة أنها ترفض
إلا أن تكون
أغنية في قلب فنان
وأطفال سيكبرون
أصواتهم..
في مجداك العالي الذي ساقته
دنياك إليك
أطل لحظة، فقد أتوا يطلون
عليك
– ها أنت تسقط بين العقل
والجنون
كمثلهم سخرت من عذابنا
كمثلهم غدوت صخرة ونحن سائرون
كمثلهم نسيت يا مليكنا
أنك ميت ونحن خالدون

في مجدك العالي الذي تملأ وجهه
الغضون
أتوا يغنون بلا شوق ويرقصون
حفار القبور
وعض خفار القبور شفتيه
حسرة وضجرا
وهو يقلب العيون في تجاويف الثرى
– ويوم أن أموت
من ترى يشم جسدي
ومن يكون شاهدي
غدا... إذا ما الناس ماتوا
والغراب مات
وآضيعتي من أجلهم
أنا الشقي آخر الأحياء والأموات
الدرويش
وبصق الدروي في جبته وقال:
– وحين أغلقنا عليه خشب التابوت
كان يقول الله ربي
الله حي لا يموت
كان يحب الله.. كان ينقيه
في نفسه.. وفي ذويه

وكان يخشاه.. ويستحيه
مولاي..
لو أنك أبصرت جلال الله
لسارت الجبال من خلفك والمياه
البومة والطاووس
وقالت البومة للطاووس:
– لولا صورتي الكريهة الدميمة
ما كنت تمشي الخيلاء معجبا
بريشك الجميل
فابتسم للطاووس ضاحكا وقال:
– صدقت يا سيدتي الحكيمة
فكبراء الكبر تعني قمة الذل في الذليل
وكثرة الكثير، قلة القليل
حجر في الطريق
قهقهة يا دبشليم؟ أم عويل
امرأة تعانق ابنها القتيل
تلمس عينيه طويلا وفمه
تشم شعره.. تهز معصمه
ثم تصيح معتمة
يا ولدي قل كلمة
ويضمحل وجهها

عبر توهج الذهول
ويتلوى شجر النخيل
محتضرا.
وتغرق ابتسامة الأصيل
في عمق نهر النيل
خلود!
لا الحزن يجديك، ولا الحل، ولا التمنى
لا رقصة المهرج الأعمى
ولا تهافت المغني
أقفرت الحياة في جنينك
واستغلقت الأشياء
فابق طويلا مثلا تشاء
لو كا يحلو في سرير ميت طول البقاء
الإنسان والحقيقة
أكتب عن عصرك كيف انطفأت..
روعته وكيف
تعرج ساقاه، وتهرمان
كل لحظة تحت ثلوج الزيف
أكتب عن عصرك.
قال بيدبا، والسيف يبكي في عناق السيف
– وباطل عصرك، ناره سجية

وشمسه غريقة
والشعر وحده هو الإنسان والحقيقة
الدياصور!
أكتب عن عصرك
عصر الغصب الميت، عصر الضحك المتهور
عصرك يا مولاي
حيث تركض الخيول في القماقم
وتسكن الغربان في العمائم
حيث يهب فجأة من ظلمة العصور
الديناصور
آخر المهذلة
أكتب عن عصرك
أبي لك في شعري قبرا
ترقد يا مولاي من أفراحه في مهرجان
تصبح فرعون الذي كان وكان..
ومثلما جاء ذهب
إلا بقايا حنطة
ومومياء ملك
وظل صولجان!
الغثيان
تبا لعصر تمطر السماء فيه

– قال بيدبا لدبشليم –

جرذانا وأغربة

وتلد الرجال فيه

ويعانون من المحيض

ويلتقي النقيض بالنقيض

وتستمد القبب المذهبة

طلاءها اللماع

من أعين الجياع

أشباح مجهولة

أغلقت الحانة أبوابها

وأحدودب الساقي، ومات النديم

فاجتر أحزانك يا دبشليم

قطتنا السوداء قد أسقطت

أبناءها أمس

وكلب الحكيم

ظل طوال الليل مستيقظا

ينبح شيئا غامضا في النجوم

المشهد الأخير

ليل مداري، وظل قمر ينهار

والملك الغراق في الرموز والأسرار

منطرح على سرير ملكه، والدم والنضار

يخصبان ردهات القصر، والثوار
ذو الشعور البيض يركضون فوق السور
وفجأة يا دبشليم يسقط الستار
ويبصق الجمهور
اعتذار
وقال بيبدبا لبشليم:
– يا مولاي معذرة
لكل ما تحجبه الستائر المعطرة
وكل من يحمل بين راحتيه مبخرة
معذرة.. وألف ألف معذرو
للنصب الأنيق فوق المقبرة
فالموت كان الفجر
والطريق كانت مقفرة!

حدث في أرض

أنا لا أملك شيئا غير إيماني بشعبي..
وبتاريخ بلادي
وبلادي أرض أفريقيا البعيدة
هذه الأرض التي أحملها ملء دمائي
والتي أنشقها ملء الهواء
والتي أعبدها في كبرياء
هذه الأرض التي يعتنق المطر عليها والخمول
والخرافات وأعشاب الحقول
هذه الأسطورة الكبرى.. بلادي

***

ذات يوم لم يزل يثقل بالنقمة أرواح جدودي
ذات يوم لم يزل يزحم ايام وجودي
وقفت أرضي ترنوا للمقادير حزينة
وقفت كامرأة تنسج أكفان السكينة
وقفت مطرقة الرأس مهينة
ورأت في نظرة واحدة.. أو نظرتين
نظرة خائنة صفراء ذات أجنحة
سفنا تزحم أعماق البحار النازحة
سفنا تغدو، وأخرى رائحة

سفنا مكتظة بالأسلحة
وبأبناء بلادي
وبخيرات بلادي
وبتاريخ بلادي
ورأت ملء شقوق الأرض سياط دامية
ورؤوسا عارية
ووجوها باكية
ودروبا كالقبور اختلطت كتل السود بها والماشية!!
***
ذات يوم أبصرت أرضي حقول الأبتوس الجارية
وهي تبكي في سكون وضجر
تحت رحمة البشر
وإرادة السماء والقدر
***

ورأت كيف تدور الساقية
فوق أنهار بلادي
ورأت كيف يدوس الطاغية
فوق أبناء بلادي
ورأت في نظرة واحدة أو نظرتين
كلمة يكتبها الأبيض في ليل بلادي
يا بلادي

***

ذات يوم وقفت أرضي حزينة
حيما لاحت على الأفق سفينة
ولأن الحزن نار باردة
تتمطي في صدور من جليد
بقيت أفريقيا متشعبة
تخلع القيد إلى قيد جديد!

***

ولأن الضعف سجن
ولأن الخوف سجن
ولأن الماضي المظلم سجن
بقيت أفريقيا مستعبدة
تنقب السجن إلى سجن جديد!

***

ولئن الموت عبء
ولئن الظلم عبد
ولئن الحر عبد في بلاد مستغله
ولئن القدر السيد عبد يتأله
والنبوات مظلة
والدينات تعله
هب من كل ضريح في بلادي

كل ميت مندث

كل روح منكسر

ناقما على البشر

كل أعداء البشر

كافرا بالسماء، والقضاء والقدر

1955

ملك أو كتابة!

بيننا خائن يا رفيق
أنا وأنت.. فنقترع قبل بدء الطريق.!

***

ملك أو كتابة
تصدأ الصور المعدنية، مثقوبة في مضاجعها...
كل وجه قبيلته فوقه
كل وشم على معصمين احتفال
ذروة النقص، في ذروة الاكتمال
لا نبي، ولا ملك
أنت عصف المحاريث وحدك
أية فاجعة أن تكون المغني وحدك
في ذروة النقص، أو ذروة الاكتمال
ويد الغيب تسكب إبريقها عطشا في التضاريس
والأرض طاولة تخذت شكلها:
ملك أو كتابة!
ليست ثمة ما يجعل الموت في الفجر أجمل منه إذا انتصف الليل.
موتك كالولادة
هل طيبتك الزيوت العتيقة
حتى تفاوحت في حمرة اليقظ!

لا ليس ثمة رائحة في زهور القرنفل
رائحة في نقوش الخلاخيل
والزبد الأصفر المتخثر تحت العباءات
والقبعات المليئة بالدم والنفط
في أي برج ولدت؟ إذن برجك الرمل
كوكب عصر التهافت في الأفق العربي السعيد
***

سألوني وها أنا أشهد:
أن الزمان عجيب... وأعجبه
إن هذي الجموع، تغني وترقص
في قفص من حديد...
***

وأشهد:
أن التراب الذي عجبته الهزيمة
كان جميلا.. وأضحى قبيحا
وأقبح من لونه في العيون
تألق تاج المهانة
فوق جاه الرجال العبيد!

(2)

الجوارح تنهش لحم السموات جائعة

وغزالة طاغور، في العشب تحلم..
مرت بها منذ حين سحابة
لم تقل أنت. يا من أرى
ملك أو كتابة!
ثم يحدث ما يشبه الحلم...
ذات عيون رصاصية، وأصابع باردة،
تتقوس فوق بنادقها.
وكآلهة في الأساطير..
تمشي الشموس مجنحة
وببطء ثقيل ترش الرصاصات
عرش الذي قتل الأرض
– إنه يتبوأ كرسيه الآن
ريش الفراعنة الأولى،
على منكبيه، وفي روحه
جسد بالغ الموت
– وببطء ثقيل ترش الرصاصات
عرش الذي قتل الأرض
ثم تغوص، وتنكسر الخطوات عليه
وتخلع مصر براقعها..
قدر كان في دمها
وهي خاضت به

تسلته غريبا.. وأنسلها لعنة
أحضرته من الظلمات.. وغاب
كان حجم جريمته... حجم يوم الحساب
***

الذي قتل الأرض
نفض نعليه فوق رقاب النبيين
واختار رقدته في الكنيس اليهودي
لكنه لم يكن وحده...
كان أنت الخيانة أو أنا
والظل أجنحة الشجر المتكسر
معذرة يا رفيق..
إن عصرا تحوم عليه الإدانة
فلتقترع قبل بدء الطريق!

(3)

حائط الغيم، يصعد معترضا، حائطا الغيم
والقوس يبق في الهضبات البعيدة
والرعد ملء الأكف، التي أمسكت
بالمداميل...
ها قد مشي الرمل
فوق الحقول التي زرعتها يداك

هو الرمل يمشي هناك
أم العمر تطفو عليه شخوص الكوابيس
عيد السيادة.. ذكرى اغتصاب فلسطين
عيد فلسطين.. ذكرى المعاهدة البربرية
عيد الصعود.. وعيد الهبوط
ويوم الصيام.. ويوم الضحية
ومات الرسول... وقام المسيح وأعشبت
العقبات السينة
وقال المطارنة الطيبون
وأفنى ابن مالك والشافعية
وهذا انقلاب لأجل القضية
وآخر أيضا، لنفس القضية
وكأس نبيذ لمجد يهوذا
وكأسان في صحة المجدلية
وعام على إثره ألف عام
وخارطة الدولة العربية
ممرغة في بقايا حطام
قوائمه النظم العنترية
فهاتيك رأيتها جاهلية
وتلك عباءتها هاشمية
وأخرى تميل إلى الماركسية

ورابعة تعشق الناصرية
وتنطق باللغة الفستقية
وتسقط كل رقاع البياذق
منهكة في حروب الكلام
وطار الحمام.. وحط الحمام
ومحظية مثل بدر التمام
وعين جلالته لا تنام
وياقوس في عليك السلام!

(4)

الذي قتل الأرض..
مازال يمسخ رؤيا الجموع
ويسقط في مطر الكلمات
يزهر أفيونه في الطقوس
وفي كتب الموت والصلوات
وأرغفة الخبز والملصقات
وطقطوقة الباشوات القدامى
ومعزوفة الباشوات الطغاة

***

ويا ليل ياعين..
يا عين يا ليل
والليل ينفخ أرغوله

في شوارع مكة
ومكة جوهرة الأنبياء
تعلق أوثانها فوق سور البكاء
وتحصد في جوعها النفط والفقراء

(5)

في أشد الفصول خريفية
تتفتق أغشية اليرقات الشقيقة
عن اسم طفلة..
سوف تحمل مائدة الله.. فوق سواعدها..
وتثبت أعمدة الكون..
من يحبس الموج كي لا يقلب كفيه
وفي لؤلؤ البحر..
من يجذب النار، ملوية من ضفائها
حج القبر يقظان، يرقب ساعته
اختبئوا فيه..
أو خبئوا جيف العصر
إن أدوس نياشينكم..
إن هذي النياشين..
فوق صدر مجوفة.. قط لم تعرف النصر
إن أدين صحائفكم...
طائر الكلمات الجريحة

يقطر في غسق الفر
أسألكم يا ملوك الطوائف..
هل أمة في حوانيتكم، أم بقايا شعوب!
إن أزمنة عانقتها الحضارة..
تطمسها ريح أيامكم..
إن من يحصد الضوء في الشمس
خشيتي من رماد هزائمكم
خشيتي من جحيم انتصاراتكم..
الغرابيل مسقوفة أبدا بالثقوب..
وليكن قدر الحق.
إن انهيار ممالككم وحده
هو شرط انتصار النبي الفدائي..
في ساحة الوطن العربي..

(6)

شجر الأرز يأكل أطفاله فجأة
كانت الشمس تنصب في شجر الأرز بستانها
وتسيخج منعطفات القرى بمغازلها
أنت من أدخل الشمس في ظله
وتسرب عريان في الظل
آخر مالم تقل:
أن سربا من الطير يتعب

لكن أعناقه لا تسد السماء على الطير
واخترت برق الألوهية
اخترت ألا تكون
الغيوم التي اتكأت في خيال الحديقة
أو سلة الياسمين.
التي خبأتها صغار العصافير
في أرخبيل الغصون..!
مونولوج صوفي معاصر
كن شريكي، أهبك جواهر قلبي
وأهبك ابنتي زوجة لك
أو كن قتيلي
إن في شفتيك، دمي، أو رحيلي-

(2)

- وكان اسمه عابد العابدين
وكان اسمك الملك المقتد

(3)

- أنت تعرف أني كثير، وأنك وحدك
وتعرف أنك قبلي، وأني بعدك

(4)

الرماد رمادي، يا نهر دجلة
والرأس رأسي يا سور بغداد

صرت وحدي في الناس مليون نخلة
كلما قطعوني ازداد!

(5)

كان كأس دمي طافحا
فاستحيت.. وأهرقته..
مثل من سيقوني...
أتراني جاوزت قدري
لأني قد تعمدت في إلهي بجنوني!

(6)

منذ أن مسني، ومضى،
تاركا كتره في فمي..
خلصت شهوتي، فهي موج يفيء إليه
وأجنحة من صبابه
لست أعرفني..
لم تقل لي، من أنت يا سيدي؟
من أنا؟ من هو الآخر المتحج في شفتي؟
ملك أو كتابة
شفق أو عقيق
إن من خاننا بيننا يا رفيق
والإدانة عبر التقاطع
فلنقترع قبل بدء الطريق!

جريدة "السفير" 82/5/1

الفهرس

- عن الشعر والكلمات الميتة 5
- الطوفان الأسود 13
- مقتل السلطان تاج الدين..... 21
- سقوط دبشليم 31
- حدث في أرض 47
- ملك أو كتابة 51